المحاضرة الثامنة عشرة

اخلاق المتنبي (١)

— ١٠ —

ليس من المستسهل ان أخوض في شيء من الكلام على اخلاق المتنبي وعلى طبائعه ، وعلى الخصوص فان أباالطيب لم يكتب ترجمته بقلمه وان اهل عصره لم يمض لهم قول واف في هذا الباب ، فلا نعرف هيأته ولا نعرف تركيب خلقته ، ولو كنا نحيط بطائفة من هذا الامر لاستطعنا ان نستدل بذلك بعض الاستدلال على معرفة اخلاق المتنبي وطبائعه ، فما وصل الينا من أقوال اهل زمانه في هذا الموضوع لا ينقع غليلاً . —

ان اباعبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي لما قدم عليه المتنبي في سنة عشرين وثلاثمائة اي لما كان عمره سبع عشرة سنة وصفه فقال : قدم اللاذقية وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتي أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ، واضاف الى هذا كله انه لم يسمع منه كلمة هزل قط .

والذي أعلمنا به ابو الفرج وقد كان ابو الطيب يأنس به و يأمنه على غيبته ان سيف الدولة كان يغتاظ من تعاظم المتنبي .

وقد عاتب ابو عبدالله بن خالويه سيف الدولة لما غمز غلمانه على المتنبي فقال له سيف الدولة : يتعاظم تلك المظمة و ينزل تلك المنزلة لولا حماقته .

وحكي عن ابي حمزة البصروي انه بلا من ابي الطيب خلالاً محمودة منها عفة المذهب ، والصدق وبلا منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن .

ووصفه ابن فورجة فقال فيه : كان داهية مر اللسان شجاعاً ، حافظاً للآداب ، عارفاً باخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه و يسقطه الا بخله وشرهه على المال .

والذي دلنا عليه الوحيدي ان المتنبي كان سيء الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حضرة سيف الدولة ، وعرّضه لمداوة الناس .

وقد ذكر ابوعلي الحاتمي ان ابا الطيب المتنبيّ عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة فلا يرى احداً الا و يرى لنفسه مزية عليه حتى ثقلت وطأته على اهل الأدب بمدينة السلام وبلغ من شذوذه انه لبس مرة سبعة اقبية دلوّنة وكان الوقت أحرّ مايكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس وشهد له ابو علي هذا بالفضيلة وصفاء الذهن ، وجودة القدح .

وكان ابو علي الفارسي قبل معرفته بالمتنبيّ يستثقله عرقبح زيه وعلى ما كان يأخذ به نفسه من الكبرياء .

هذا ماانتهى الينا من وصف بعض ظواهر المتنبيّ وبواطنه بوجه التقريب ، ولم يكن في مختلف هذا الوصف شيء من الخروج من لمقدار ، فمن المحقق ان الرجل كان قليل الميل الى الهزل ، فان روحاً مثل روحه نزّاعة الى العظمة والعلو لاشأن لها في الهزل ، فقد كانت حياته جداً كل الجد ليس فيها متسع للهزل ، وان رجلاً يضرب في مناكب الارض وبواديها وحواضرها ابتغاء لأمر جلّ ان يسمى :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وماتبتغي ، ماابتغي جل ان يسمى

ان رجلاً هذا هومطمعه في الحياة لايجد لغيرالجد معنى ، ولئن عبث في قليل من شعره ، مثل عبثه في قوله وقدمرّ برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجّبان الناس من كبره :

وايكما كان من خلفه فان به عضّة من الذنب

او مثل عبثه في قوله :

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له : الحق

نعم فما كان العبث من مذهبه .

ومن المحقق ان اباالطيب كان صادقاً عفيف المذهب :

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبتُ عن شعَرٍ في الرأس مكذوب

فلسنا نجد في اضعاف شعره نزعة الى اللهو والطرب ، فقد كان ينظر الى الحياة من ناحيتها السوداء وقلما نظر اليها من الناحية البيضاء اللامعة ، فما تغنى في شعره بشيء من نضارة الحياة ولذتها ، وانما أعرب في شعره عن الألم وقلما يجتمع اللهو وألم النفس ، وللهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نفوس لا سبيل للألم اليها ، اما الأبيات التي تدل على ألم روحه فهي كثيرة . فمنها :

فؤاد ما تسليه المدام — وعمر مثل ماتهب اللئام

ومنها :

رماني الدهر بالارزاء حتى — فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام — تكسرت النصال على النصال

ولقد اكثر من الاشارة الى تضافر المصائب فمن قوله في مصر وقد أصابته حمى :

أبنت الدهرِ عندي كل بنت — فكيف وصلتِ انتِ من الزحام

وفي هذه القصيدة يقول :

وان أسلم فما أبقى ولكن — سلمت من الحِمام الى الحِمام

فحياته في نظره موت له ، فما أقلَّ سروره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته — في غير أمته من سالف الامم
أتى الزمان بنوه في شبيبته — فسرّهم واتيناه على الهرم

على انه قد جاء في شعره ما يدل على ذوقه شيئاً من اللذات ، فمنه قوله :

درُّ درِّ الصباء ايام تجريـــر ذيولي بدار أثلةَ عودي

ومنه قوله :

إنمْ ولَذّ فللأمور أواخر — ابداً اذا كانت لهنَّ اوائل
مادمت من أرب الحسان فانما — روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمرُّ كأنها — قُبَل يزوّدها حبيب راحل

ولكن مذهبه في اللذّات العفة التامة :

اني على شغفي بما في خُمْرها — لأعفُّ عما في سرابيلاتها
وترى المروّة والفتوّة والابوّة فيّ كل مليحةٍ ضَرّاتِها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي — في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

نعم هذا هو مذهبه : المروّة والفتوّة والابوّة ، وان بيتاً مثل هذا البيت :

اذا كان الشبابُ السكر والشيبُ همّاً فالحياة هي الحِمام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يصدر عن قلب قضى صاحبه شرخ الشباب في شيء من اللهو وفي شيء من توابع اللهو ، فما اصدقه في هذا الكلام :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه .

* * *

اما شجاعته فلا ريب فيها وان رجلاً يقولون له : كمنت لك جماعة تريد بك الشرّ فخذ معك من يسير بين يديك فيغتاظ من هذا القول غيظاً شديداً ويقول : والله لا أرضى ان يتحدث الناس باني سرت في خفارة احد غير سيفي ، ان رجلاً مثل هذا يحذّرونه من الموت فلا يبالي بتحذيرهم استصغاراً لشأن الموت ، واحتقاراً لمن كمن له ، فيقع في الذي حذروه منه لا يدخل الخوف قلبه ، ولقد أعانه على هذه الشجاعة صحبته للأعراب ، وإلفته لغزوهم ، وسيره في البوادي ، ومصاحبته لسيف الدولة في كثير من غزواته ، فالرجل كان شجاعاً لا شك في شجاعته والذي يرى حياته موتاً يستوي عنده الموت والحياة .

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

واما شرهه على المال فهذا امر طبيعي ، فقد ذاق المتنبيّ في حداثة سنه ألم الفقر ، فما زال يسعى في طلب المال حتى اجتمع له شيء منه ، فحرص على ثروته ولم يبذّر ولا يعرف قيمة المال الا الذي يتعب في جمعه ، والمتنبيّ لم يغنَ من غير ان يساوره كثير من الألم ، واي ألم أعظم من ألم الحساد ، فهل يلام على حرصه ولا سيما ان الرجل كان محسّد الشأن حتى كان حساده يتمنون موته ، فكانوا يبغضونه ، ويتربصون به الدوائر ، هل يلام على اتخاذه المال جنة يدفع بها عن نفسه اذا أعرضت الدنيا عنه في يوم من الايام فما ذا كان يلاقي من الناس في حالة اعراضها ، أفكان يلاقي منهم غير الشماتة ؟

على اني أعتقد ان الرجل كان مقتصداً ولم يكن بخيلاً والفرق بين البخل وبين الاقتصاد ظاهر ، فما أظن ان ابا الطيب كان من البخلاء الذين ينشأ بخلهم عن مرض من أمراض العقل فلا يجدون في انفسهم سلطاناً عليه ، وانما كان مقتصداً يحسب للامور حساباً ويعدّ لها عدّتها حتى لا يفاجئه الزمان بمكارهه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما ضعف عقيدته ورقة دينه فهذا امر صحيح ، وكثيراً ماقرع المتنبيُّ هذا الباب كما قال الثعالبي ، وقد رويت لكم الابيات التي دلت على اخلاله بالدين واستهانته بامره والظاهر ان الرجل كان على مذهب المتشككين .

تخالف النــاس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

* * *

ولكن أظهَر أخلاق المتنبيُّ التعظُّم وقلة المداراة ، وقد أثبت هـذه الأخلاق ما كان يقع له في مجالس سيف الدولة وكافور وفي بغداد ، فأبو الطيب كان قليل المداراة للناس ، وقد شهدتم كيف كان يتعرَّض لأكابر الادباء ويستأنس بتجهيلهم ، وليس معنى هذا ان اباالطيب كان يجهل بعواقب تعرضه للناس ، و يخوانيم قلة المداراة ، ولكن الرجل كان شاذ الخلق ، يصعب عليه ان يداجي ويداريَ ، ولو فعل شيئاً من ذلك لملك القلوب ، ونحن نشاهد في عصرنا من لايداجي ولا يداري ، فتنقبض القلوب عنه و يبسطون السنتهم فيه ، والناس ينقادون عادةً من نواحي العاطفة والهوى ، فربَّ ابتسام نبتسمه ينزع ماوقر في الصدور من غل او حقد ، وربَّ تقطيب نقطبه يغرس لنا البغضاء في القلوب ، هذه هي طبيعة البشر . ولكن ابا الطيب اكبر من ان يحتاج الى شيء من المداراة والمداجاة ، فكان يجري على طبيعته لا يعبأ بشيء من غضب الناس عليه أو طعنهم فيه ، فان له من الثقة بخلود عبقريته مايجعله يحتقر اولئك الغاضبين الطاعنين .

ليت ثنائي الذي أصوغ فدى من صيغ فيـه فانه خالدُ

فالطعن على اهل العبقرية يذهب جُفاء ، وتمكث عبقريتهم في الارض ، فلا الافراط في الثناء على اهل البلاهة يمهد لهم سبيلاً الى الخلود ، ولا الافراط في تنقص اهل العبقرية يغلق الأبواب في وجه خلودهم ، نعم كان ابوالطيب يعرف هذا كله ، ولكنه أرفع من ان يُسرِفَ الى المداجاة والمداراة . ماداجي ولاداري الا كل من لا يثق بقوة نفسه ، وكل من يحتاج الى قوة غيره ، و يستعين بها على حياته .

على ان اباالطيب كان يجاري الناس في بعض الاحايين في الخداع ، وما مجاراته هذه الا هزء بالناس :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما صار وُدّ الناس خبّاً جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت اشك فيمن اصطفيه لعلمي انه بعض الأنام

فالرجل كان قليل المداراة ، وقلة مداراته أوغرت الصدور ، وهاجت الضغائن ، ولكن ابا الطيب كان يسخر من حسد الحساد ، واغتياظ المتغاظين ، فلم يفكر فيهم ولا شغل ذهنه بهم ، فقد سلّح الأدب بابيات صلاحاً يهزأ بثرثرة الثرثار وهذر المهذار ، أفأجد حاجة الى ان أعيد هذه الابيات وقد سمعتموها في المجلس الماضي و يكفيني ان أشير منها الى بيت واحد :

ومن يك ذا فم مرٍ مريضٍ يجد مراً به الماء الزلالا

او الى بيت آخر :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكله

بهذه الابيات واشباهها كان المتنبي يسحق المتطاولين للوقيعة فيه ، فما أصدق الذي وصفه بمرارة اللسان ، واي مرارة أمرّ من هذه المرارة ، ولو جمعوا كل ماقالوه فيه من طعن لما وازن حرفاً من هذه الأبيات :

بذي الغباوة من إنشادها ضرر كما تُضرّ رياح الورد بالجعل

* * *

نعم كان ابو الطيب مرّ اللسان ، فاذا غضب على احد أذاقه مرارة هذا اللسان فانه لما فارق سيف الدولة لم ينج سيف الدولة من قوارصه ، وفي اول قصيدة قالها في كافور أثر من هذه القوارص :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
وأعلم ان البين يشكيك بعده فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غدر بربها أذا كنّ اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

فهذا الشعر كله تعريض بملك حلب ، والظاهر ان سيف الدولة كان يؤلم المتنبي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في عطاياه ، فكان ينعم عليه ولكنه كان يبطل نعمته بالمن والاذى فاذا تأخر مدح ابي الطيب عنه تنكر له بالحال (١)

أرى ذلك القربَ صار ازورارا … وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة … أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً … وازجر في الخيل مهري سرارا

فكان المتنبي يضطر الى الاعتذار :

كفرت مكارمك الباهرات … ان كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليلَ … همٌّ حمى النوم الا غرارا

ولا يخفى ما في الاعتذار من إعنات النفس والتشديد عليها ، واذا علمنا ان الشاعر قد تعرض له في بعض الحالات عوارض يعاف فيها حياته ، فيستعصي عليه الكلام أدركنا الالم الذي كان يساور ابا الطيب في ازورار سيف الدولة عنه اذا ابطأ عليه مدحه ، فكأن سيف الدولة يقول له : انا اشتريت شعرك بالمال ، وقد أخذت مالي فاعطني شعرك ، وكل هذا لا يخلو من منة واذى ، وكل هذا لا يخلو من ايلام وايجاع ، وعلى الخصوص اذا كانت الروح الابية مثل روح ابي الطيب يحركها اقل شيء ، ومن الذي يحق له ان يلجأ الى المنة ، أسيف الدولة أم المتنبي ، أفكان سيف الدولة لولا المتنبي الا ملكاً من اولئك الملوك الذين ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق لهم الا القليل من الذكر ، أفكان سيف الدولة لولا ابو الطيب يخلد هذا الخلود على شبيبة الزمان وعلى هرمه ، فالمتنبي لم يسيء الى سيف الدولة ، وانما سيف الدولة هو الذي بدأ بالاساءة ، ومع هذا كله فقد كان في قلب ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة بعد الانصراف عنه .

(١) كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدح المتنبي شق عليه واكثر أذاه وأحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب فلا يجيب ابو الطيب احداً عن شيء فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتمادى ابو الطيب على ترك قول الشعر ويلج سيف الدولة فيما كان يفعله الى ان زاد الأمر وكثر عليه فقال قصيدته التي اولها .

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم … ومن بجسمي وحالي عنده سقم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوى كامن كفي وقومي وأسهمي

نعم ترك المتنبي مجالاً للصحبة فلم يغضب على سيف الدولة كل الغضب :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأمٌ ومن يممت خيرُ ميمَّم

ولما خرج ابو الطيب من مصر الى العراق كتب اليه سيف الدولة بالعودة اليه وألح عليه ، فلم يرض بذلك ابو الطيب ، وهذا يدل على أن أثر الجرح في نفسه بليغ .

* * *

نعم غادر المتنبيُ سيف الدولة ولم ينفض كل ما في قلبه من محبة سيف الدولة ، وانما اقتصر على الاشارة الى التنغيص والمنن ، فلم تظهر مرارة لسانه الظهور كله ، ولكنه لما ترك كافوراً عرض علينا هذه المرارة في أوضح معارضها ، فان كافوراً أساء الى ابي الطيب من اول اتصاله به ، فقد أظهر له التهمة اول يوم ولم يسمح له بان ينشده وهو قاعد ، ولم يسمح له بان يجلس في مجلسه ، ووعده بان يوليه فأخلف الميعاد ، وفي خاتمة الامر نوى ان يقتله ، أفيلام ابو الطيب اذا تشفى من غيظه ، وعلى الخصوص بعد ان أطمعه كافور في الولاية ولم يذقه حلاوتها ، وانتم تعلمون كم كانت الولاية تشغل باله ، أفيلام ابو الطيب اذا آذاه كافور فردّ اليه شيئاً من الاذى :

أمينـاً واخلافاً وغدراً وخسة وجبناً أشخصاً لحت لي ام مخازيا

لم يتزيد المتنبيُ في هذا الهجو ، رمى كافوراً بالكذب ، وقد كذب عليه ، ورماه بالاخلاف وقد أخلف وعده ، ورماه بالغدر ، وقد غدر به فأراد قتله ورماه بالجبن وقد كان يخافه اذا هو ولاّه .

ليس من العجب بعد هذا كله ان تظهر مرارة لسان المتنبيُ في أهاجيه في كافور ولست أنبهكم على موطن من مواطن هذه المرارة فارجعوا الى كل اهاجيه فيه فانها آلم ما يكون من الشعر :

من علّم الأسود المخصيَّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم اذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود

اولى اللئام كوفير بمذرة في كل لؤم وبعض العذر تفنيد

وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما هي عطايا كافور الى جنب ماقاله المتنبيّ فيه ، وما هو حظ كافور من الخلود لولا شعر ابي الطيب الذي خلّده .

على ان ابا الطيب لم يكن قليل الوفاء ، فما عرّض بسيف الدولة الاّ لأن سيف الدولة كان يؤمله في عطاياه ، وما أفحش في هجاء كافور الاّ لان كافوراً أراد قتله ، ولقد وفى ببعض العهود ، ووفاء دل على ان الرجل كان صادق الود فقد توفي ابو شجاع فاتك بمصر سنة خمسين وثلاث مائة فرثاه المتنبيّ بعد خروجه منها اى بعد انقطاع رغبته في كل عطية من عطايا فاتك ، وتوفيت اخت سيف الدولة بميافارقين ، وورد خبرها الى الكوفة فرثاها ابو الطيب وعزى اخاها بها سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة اي بعد مفارقته سيف الدولة وبعد عزمه على ان لا يعود الى مجالس سيف الدولة ، وجاء في هذه القصيدة ابيات دلت على حسن وفائه :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

تبين لكم ان ابا الطيب كان لا بداري والغالب على الذين تقل مداراتهم التعظم والكبرياء وقد يكون تعظمهم في بعض الاحيان خلقاً ظاهراً يظنه الناس خلقاً باطناً فقد تغش الظواهر فلا تنم عن حقائق البواطن ، ولسنا ندري أكان ابو الطيب من أصحاب العنجهية الظاهرة أم تمكنت الكبرياء من باطنه ، فكان متعظم الظاهر والباطن ، فالذي دل عليه شعره انه اكثر من الفخر بنفسه في كل حال من احواله ، فلا يجب ان نشبهه باحد لأنه لا شبيه له :

أحط عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوقي ولا احد مثلي

وقد كان يشعر بعجبه ، ويوضح سبب هذا العجب :

ان اكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

ولكن الذي يزعج في بعض الاحوال ان لفظة « انا » لا يكاد يخلو منها شعره ، فلقد حار في الشيء الذي يشبه به نفسه ، فمرة هو صخرة الوادي والجوزاء :

انا صخرة الوادي اذا مازوحمت واذا نطقت فانني الجوزاء

ومرة هو الاديب الذي لا اديب غيره :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم

وحينا هو المبدع لكل شيء :

انا السابق الهادي الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول

وحيناً هو السمهري :

وما انا الا سمهري حملته فزين معروضاً وراع مسودا

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

لقد امتلأ ابو الطيب عجباً ، واظن انه كان يقلق اهل عصره في بعض الاحايين بهذا العجب ، فلو حدثنا محدث ، واخذ في كل فرصة يحدثنا عن نفسه و يردد لفظة «انا» « انا » لما فرغ من احاديثه دون ان يغادر في قلوبنا شيئاً من الملل ، لقد يحتمل المرء اذا فخر بنفسه مرة او مرتين ولكنه اذا جعل مجيراه هذا الفخر فقد تثقل وطأته علينا ، ولا شك في ان ابا الطيب قد ثقلت وطأته على اهل عصره في بعض الاحيان .

ان تعظمه ظاهر في شعره لايكاد يخفيه فهو كثير التكلم على نفسه ، لا يبالي بما ينشيء هذا التكلم من الآثار في النفوس ، ولم يقتصر على التغني بجمال عبقريته ولكنه جاوز هذا التغني الى شيء من العجب والفخر ، وقد يكون هذا المذهب مدعاة الى الاضجار ، اننا نحب ان يذوق الناس محاسننا من تلقاء انفسهم اي من دون ان نذيقهم اياها ، اننا نحب ان يشعروا بهذه المحاسن من غير ان نشعرهم بها فاذا توخينا اظهارها والتنبيه عليها والاشارة اليها فقد يذهب شيء من آثارها في النفوس ، وربما عادت هذه المحاسن مساوئ ، فابو الطيب كان يحب ان يذيق الناس محاسنه بنفسه فهو لا يريد ان يدع لهم مجالاً لذوقها بانفسهم ، ولعل هذا السر في ثقل وطأته على الناس ، وقد يكون السبب في لجوئه الى هذا المذهب ان الناس كانوا يبخسونه حقه ، ويطمسون من آثار حسناته فكان يضطر الى التنويه بحسناته :

واذا خفيت على الغبي فعاذر ان لا تراني مقلة عمياء

نعم كان ابو الطيب متعظماً في الظاهر وفي الباطن وكثيراً ما كان يجعل نفسه في اماديحه بمنزلة الملوك الذين كان يمدحهم :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدّعي من البعداء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانا منك لا يهنيُ عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وربما كان حظه من مدح نفسه في بعض شعره أوفى من حظ الممدوحين ، وقد حمله تعظمه هذا على احتقار الناس ، وما ذهب عنكم امر هذا الاحتقار ، ولقد هزأ بكافور نفسه في أماديحه فيه ، فأخاق به ان يهزأ به بغير كافور فكان كثيراً ما يلجأ الى التصغير حتى قال فيه ابوالعلاء : ان الرجل كان مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخاسة المغير والصحيح انه أولع بالتصغير فلم يكتف بتصغير الأحمق :

مقالي للأحيمق يا حليم

او بتصغير الخادم :

ونام الخويدم عن ليلنا

او بصغير الشاعر :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

ولكنه صغّر اهل زمانه كلهم :

أذمُّ الى هذا الزمان اهيله

دمشق : في ١٩ نيسان سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net